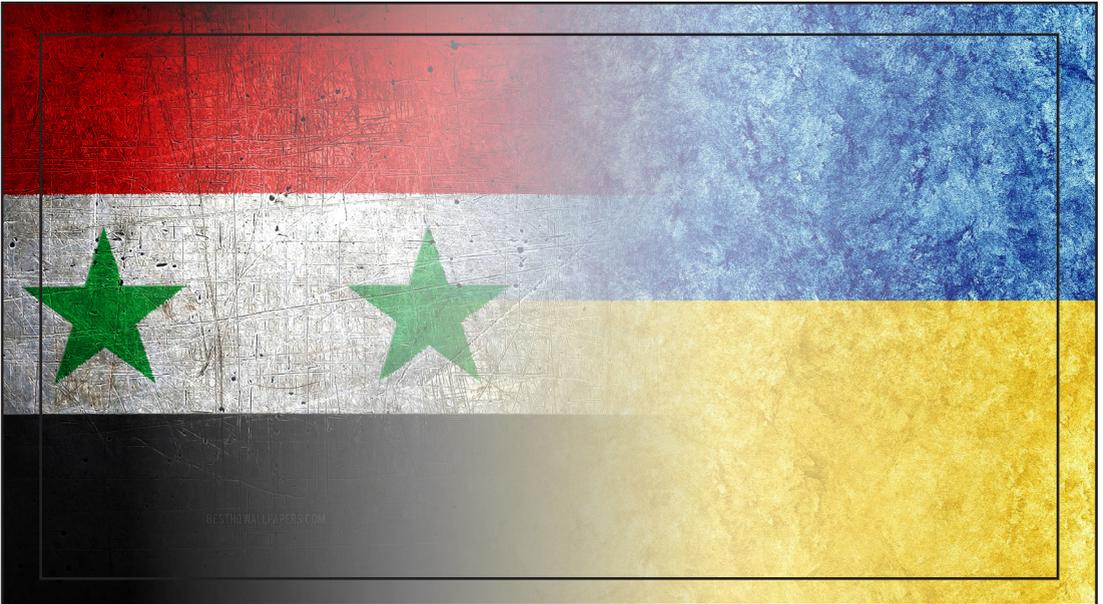




مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Planning and Studies

سياسات خرجة تداعيات الأزمة الأوكرانية على سورية، منظور التهديد - الفرصة

عقيل سعيد محفوض



سلسلة إصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركزٌ مستقلٌّ، غيرُ ربحيٍّ، مقرّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليل مستقلٍّ، وإيجاد حلولٍ عمليّةٍ جليّةٍ لقضايا معقدةٍ تمّم الحقلين السياسي والأكاديمي.

ملاحظة:

الآراء الواردة في المقال لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وإنما تعبر عن رأي كاتبها.

حقوق النشر محفوظة © 2022

www.bayancenter.org

info@bayancenter.org

Since 2014

سياسات حرجة تداعيات الأزمة الأوكرانية على سورية، منظور التهديد - الفرصة

عقيل سعيد محفوض *

كانت سورية البلد الوحيد تقريباً الذي أعلن تأييده لـ «العملية العسكرية» الروسية في أوكرانيا، منذ اليوم الأول لها، فيما دعت المعارضة السورية الغرب للرد على روسيا في سورية، وطلبت منه الدعم بالمال والسلاح ضد دمشق. وبرز استقطابٌ حاد نسبياً بين السوريين بشأن الأزمة، بين من عدّها فرصة يجب اغتنامها، ومن عدّها تهديداً يجب احتواؤه؛ ولو أنّ القراءة المعقدة تُظهر أنّهم عدّوها «فرصة وتهديداً» في آن واحد!

ينطلق التحليل من وجود «ترابط موضوعي»، و«تأثير متبادل» بين الأزمتين الأوكرانية والسورية، بوصفهما ساحتين للمنافسة والصراع بين روسيا والغرب، ربّما أكثر منهما أزمتان محليتان أو داخليتان! ومن أنّ الحرب ليست خياراً اعتيادياً بين روسيا وأمريكا. وقد أظهرت التجربة السورية منذ حدث العام 2011 والحرب التي تلتها، إمكانية أن تسير التناقضات بينهما بقدر من الضبط والانضباط والرغبة في التفاهم. وحقّق كلٌّ منهما مكاسب مهمة فيها.

وكان بإمكان التجربة السورية أن تتمثّل «إطاراً» أو «منوالاً» للتفاعل بينهما في أوكرانيا. لكن هذا لم يحدث حتى الآن، ولو أنّ من المحتمل أو المرجّح أن يعودا إليه، في أوكرانيا، وألاً يغادره في سورية، هذا بافتراض قراءة عقلانية للموقف من قبل فواعل السياسة وصنع القرار في موسكو وواشنطن¹.

ومثلما برزت مؤشرات على تطبيق خبرة الحرب السورية ودروسها في الحرب الأوكرانية، لجهة: تكتيكات الإعلام والدعاية، ووسائل الاتصال والتواصل الاجتماعي، والعمليات العسكرية، وسياسات النزوح واللجوء، والحصار والعقوبات، ودور الشبكات دولية النشاط، والمقاتلين الأجانب، وكل ما يُعرف بتكتيكات «الحرب الهجينة» وأدواتها؛ فقد برزت بالمقابل أسئلة وتقديرات حول منعكسات أو تأثيرات ممكنة أو محتملة للأزمة الأوكرانية على سورية، لجهة عدّها: ساحة «مواجهة

1. يمكن التساؤل عن السبب الذي جعل روسيا وأمريكا تحفّقان في ضبط تناقضاتهما وهرانتهما في أوكرانيا، فيما نجحتنا بذلك - إلى حدٍّ كبير - في سورية؟

* باحث وأكاديمي.

موازية»، والتراجع عن «التفاهات الإطارية» بين روسيا وأمريكا حولها، و«إعادة إنتاج» الحرب فيها، وتسعيها، ومضي كل طرف في رهاناته القصوى إزائها؛ أو ساحة «مفاضلة» بينها وبين أوكرانيا، أو ورقة «مساومة» محتملة في أي عملية للحل أو التسوية بين روسيا وأمريكا.

ومثل أي قراءة أو تحليل، يركّز هذا النص على نقط أكثر من غيرها: روسيا وأمريكا بوصفهما فواعل رئيسة في الحدثين أو الأزمتين الأوكرانية والسورية؛ وتأثيرات الأزمة في أوكرانيا على الأزمة السورية في الجوانب السياسية والإستراتيجية، أكثر من الجوانب الاقتصادية، على أهمية الأخيرة؛ والمقاربة المركّبة من منظور التهديد - الفرصة بالنسبة للنظام السياسي والدولة في سورية، والإشارات والتنبيهات حول الاستجابات الممكنة من قبل سورية وعدد من دول المنطقة - خصوصاً العراق وإيران - إزاء الأزمة.

أولاً - بين المواجهة والمفاضلة

لا تفضّل روسيا وأمريكا الدخول في مواجهة مباشرة بينهما في أوكرانيا أو غيرها؛ بسبب وجود إكراهات كثيرة، منها أخطار الانزلاق إلى حرب كبرى من الصعب التنبؤ بمآلاتها، ومن ثمّ فإنّ الطرفين مضطّرّان لاتباع سياسات مواجهة مركبة، لكنّها غير مباشرة:

- روسيا، بالمضي في العملية العسكرية لحين تحقيق عدة أهداف تتركز في: حياد أوكرانيا، ونزع سلاحها، وضمّان مصالح روسيا فيها.

- وأمريكا، بالمضي في دعم أوكرانيا، وتحويل التدخل العسكري الروسي فيها إلى «حرب استنزاف»، وتعزيز الحصار والخنق الاقتصادي، والإجهاذ الأمني والعسكري، والعزلة السياسية.. إلخ.

أمّا ما يتعلّق بالمنعكس المحتمل للأزمة بين روسيا وأمريكا في أوكرانيا على الأزمة السورية؛ فيمكن الإشارة إلى مستويين أو نمطين محتملين رئيسين لذلك، الأول: هو عدّ سورية ساحة مواجهة وتوريط، أو مستنقع يحاول كل طرف أن يغرق به الطرف الآخر، الثاني: هو عدّها ورقة، أو ساحة مساومة، أو مفاضلة.

- «أفغانستان أخرى»!

أن تكون سورية ساحة مواجهة جانبية أو موازية، لكنّها غير مباشرة، ويمكن لكل طرف أن يدّعي قدرته على تحويلها إلى «أفغانستان أخرى» للطرف الآخر، إذ إنّ «الدرس الأفغاني» ماثل

لدى كل منهما، وإن لم يكونا سواء. وهكذا، فإنَّ التقديرات التي تركز على قدرة أمريكا وحلفائها على جعل سورية بمنزلة «أفغانستان أخرى» لروسيا، واستثناء أمريكا من ذلك، أي: استثناء قدرة روسيا على جعلها كذلك لأمريكا، هي تقديرات غير دقيقة².

- المفاضلة والمساومة

لكن سورية ليست بالأهمية أو الأولوية نفسها التي تشغلها أوكرانيا لدى الطرفين، ومن ثمَّ فإنَّ احتدام الأمور بينهما في أوكرانيا، قد يرشِّح سورية لأن تكون ساحة مساومة، وحتى ساحة تحلٍّ، في حال تطوَّرت الأمور لتدفع بأيٍّ من الطرفين للمفاضلة بين الأزميتين أو الساحتين، كيف؟

يمكن لروسيا وأمريكا تحمُّل التراجع في سورية أكثر من أوكرانيا، هذا أمر مناسب لـ«مساومة» يمكن أن تفضي -من هذا المنظور- إلى «التخلي» أو «التضحية» بـ«الأقل أولوية» و«الأقل تكلفة»، مادياً ومعنوياً، إن أمكن التعبير. ولا يكون «التخلي» أو «التضحية» تماماً، وإنما بـ«خفض» المطالب و«قبول تسويات» لم تكن ممكنةً حتى الآن. وهذه مسألة بالغة التعقيد، وغير مرجَّحة، ولكنها ممكنة.

ثانياً- منظور التهديد

إذا غلب التوتر والنزاع على الموقف، ورأت كل من أمريكا وروسيا أن تعدَّا سورية ساحة مواجهة بينهما، فمن المحتمل أن تشهد التفاهات والتطورات في الوضع الميداني والسياسي نكوصاً أو تراجعاً مؤثراً. وذلك على النحو الآتي:

- تدعم الولايات المتحدة المعارضات المسلحة، وتحشد مزيداً من القوة من أجل «إعادة إنتاج» الحرب، واستهداف روسيا في سورية، ومزيد من الدعم لمشروع «الإدارة الذاتية» و«قسد» في منطقة الجزيرة السورية. و«عرقلة» عودة العلاقات مع الدول العربية أو «ضبطها».

- فيما تواصل روسيا وجودها العسكري ودعمها للحكومة والجيش في سورية، وتحشد مزيداً من القوة في سورية لأهداف تتجاوز الحدث السوري نفسه، ويوصف سورية قاعدة متقدمة للنفوذ والمصالح الروسية في المنطقة والعالم.

2. انظر: عقيل سعيد محفوض، الحدث الأفغاني: قراءة في الدوافع والتداعيات.. والدروس الممكنة، (بغداد: مركز البيان للدراسات والتخطيط، 5 أيلول/سبتمبر 2021)، <https://www.bayancenter.org/2021/09/742>

صحيح أن روسيا قوية في سورية، لكن الوضع ما يزال هشاً للغاية، ذلك أنها ليست وحدها فيها، ولو أن لديها عوامل تأثير قوية نسبياً؛ وهي إلى جانب دمشق في أمور محدّدة، ولكنها على الجانب الآخر تقريباً في أمور أخرى، ونعني التفاعلات القوية والنشطة مع كلٍّ من إسرائيل وتركيا، ممّا لا يتوافق تماماً مع تقديرات الحكومة السورية ومواقفها.

أظهرت المواقف من الأزمة الأوكرانية، هشاشة عدد من التفاهات والاصطفافات والتحالفات حول سورية. ثمة أخطار تهدّد «تفاهات إستانة» بين روسيا وتركيا وإيران في سورية. ومثل ذلك للتفاهات بين روسيا وإسرائيل بشأن سورية.

ثمة قابلية متزايدة نسبياً لـ«المباعدة» بين روسيا وإيران في سورية. لم تظهر إيران حماسة للموقف الروسي في أوكرانيا، بل إنها أبدت استعدادها لتعويض النقص في إمدادات الطاقة إذا ما توقفت أو تراجعت الإمدادات الروسية بفعل الحرب أو العقوبات³. وردّت روسيا بوضع اشتراطات اللحظة الأخيرة في مفاوضات جنيف حول عودة أمريكا إلى الاتفاق النووي الإيراني⁴.

إذا ما سارت الأمور بالاتفاق النووي ورفعت العقوبات الأمريكية عن إيران، فهذا يعزّز موقف الأخيرة في سورية، ويمكّنها من تعويض «تراجع روسي» محتمل للحكومة السورية، في حال حدث تراجع أو شيء منه؛ فإيران تملك -عندئذٍ- موارد مادية، وقوة اندفاع معنوية أكبر، وسورية مضطرة لتعويض بعض «الفاقد الروسي»، كما تحتاج موارد الطاقة، والتخفيف من الإجهاد الاقتصادي والاجتماعي، وتدهور مؤشرات العيش.. إلخ، لكن ذلك ليس من دون مقابل أو من دون تبعات قد تتجاوز الأزمة السورية نفسها، أو قدرة الحكومة السورية على تحمّلها⁵.

وهذا يفتح الباب على أوضاع يصعب تقديرها. وقد يدفع بفواعل عديدة، منها إسرائيل

3. «إيران تعرض تزويد أوروبا بالغاز»، العربي الجديد، 23 شباط/فبراير 2022. وانظر مثلاً الكاتب الصحفي الإيراني قوروش زيباري:

Kourosh Ziabari, Why Iran won't readily replace Russian oil and gas, Asia Times, March 9, 2022, <https://asiatimes.com/2022/03/why-iran-wont-readily-replace-russian-oil-and-gas/>

4. انظر مثلاً: «روسيا تربط الاتفاق النووي الإيراني بالعقوبات الخاصة بأوكرانيا»، الشرق الأوسط، 5 آذار/مارس 2022. وانظر: «طهران تنضم لواشنطن في انتقاد شروط موسكو الجديدة للاتفاق النووي»، الشرق الأوسط أون لاين، 7 آذار/مارس 2022.

5. انظر جانباً من القضايا والموضوعات بين سورية وإيران في: عقيل سعيد محفوض، الحلف المكين! حول ميزان المعنى والقوة بين سورية وإيران، (بغداد: مركز البيان للدراسات والتخطيط، آب/أغسطس 2021).

<https://www.bayancenter.org/2021/08/7294/>

وتركيا ودول عربية وغيرها، لأن تُعيد إنتاج الحرب، أو التضيق على دمشق لـ«ضبط» تحالفها مع إيران أو بالأحرى ضبط وجودها و«تموضعها» الأمني والعسكري فيها، هذا موقف بالغ التعقيد، ومفتوح على احتمالات وتقديرات مختلفة.

أبدت تركيا موقفاً مركباً إزاء الأزمة في أوكرانيا، فهي دعمت «كيفية» السياسة والإعلام والسلاح، وأيدت مواقف الغرب إزاء العملية العسكرية الروسية فيها، ولكنها لم تقطع مع روسيا، إذ ثمة مصالح كبيرة بينهما، وخاصة في سورية. وفي الوقت نفسه تعمل تركيا على تعزيز علاقاتها بإسرائيل ودول الخليج العربية ومصر. وتقدّم نفسها بديلاً يمكن التعويل عليه لـ«احتواء» إيران في سورية.

إنّ تراجع روسيا في سورية مهم لتركيا، وإذا حدث، فقد تُعيد إنتاج سياساتها، وتحرك رهاناتها العميقة إزاء (سورية)، وتدخل في مساومات حول كل شيء فيها: مع روسيا نفسها بشروط تفاهم أفضل، ومع أمريكا إزاء روسيا وإيران، ومع إسرائيل إزاء إيران، ومع إيران إزاء النظام السياسي والحكومة (في دمشق)، والكرد، وأمريكا، وإسرائيل.

تتحسّب إسرائيل لتأثيرات محتملة للأزمة الأوكرانية على وجود روسيا في سورية⁶، وعلى التفاهات الحاكمة للمشهد السوري، وخاصة تلك التفاهات بين أمريكا وروسيا حول أولوية أمن إسرائيل، و«توافقهما الموضوعي» على «احتواء» مختلف الإيقاع والنمط لإيران، ولكن الأهم هو التفاهات بين روسيا وإسرائيل لـ«احتواء» ما تسميه إسرائيل بـ«التموضع الإيراني» في سورية، والتي تتخذ طابعاً مختلفاً.

ولكن الاحتدام بين روسيا وأمريكا في أوكرانيا، واحتمال انتقاله إلى سورية، يضع إسرائيل في موقف موازنة دقيق، لأنّها بحاجة لروسيا في سورية، للأسباب المذكورة أعلاه، ولكنها ليست مع انتصار روسيا في أوكرانيا⁷، لأنّ ذلك سوف يكسبها -أي: روسيا- قوة أكبر في سورية، ويعزّز

6. انظر مثلاً:

Ben Caspit, "Israel reluctantly condemns Russia over Ukraine", Al-Monitor, February 25, 2022, <https://www.al-monitor.com/originals/2022/02/israel-reluctantly-condemns-russia-over-ukraine>

7. نشر «معهد السياسات في مركز هرتسليا» دراسة بعنوان: «النظام العالمي في موضع تساؤلات؟ التداعيات على إسرائيل»، أعدها عدد من الباحثين في المعهد حول موقف إسرائيل حيال عدد من القضايا، منها: الأزمة الأوكرانية والملف النووي الإيراني، بتاريخ 17 شباط/فبراير 2022. انظر ملخص الدراسة في:

<https://digitalprojects.palestine-studies.org/ar/daily/mukhtarar-view/249866>

موقفها إزاء إسرائيل، كما يعزّز قوة النظام السياسي والدولة المركزية في دمشق، بكل التبعات المترتبة على ذلك.

ثالثاً- منظور الفرصة

جاءت الأزمة الأوكرانية بمنزلة «دليل إثبات» على صحة ما ذهبت إليه روسيا في سورية منذ حدث 2011 والحرب التي تلتها، وخاصة مع الدخول العسكري على خط الأزمة أو الحرب. وسورية اليوم هي جزء لا يتجزأ من إستراتيجيات الأمن القومي لروسيا، ورمز لتقدّم روسيا في المنطقة والعالم، كما سبقت الإشارة.

وما تزال الأسباب التي دفعت روسيا للدخول إلى سورية قائمة، بل أصبحت أكثر أولوية وقوة وحيوية، ومن ثمّ فإنّ من الصعب أن تتخلّ عن وجودها ودورها فيها، بل إنّ ذلك يمثّل جزءاً من ميزان المعنى والقوة لدى الروس في مواجهة الغرب، وارتباطاً بأزمة أوكرانيا نفسها. ومن هذا الباب فإنّ الأزمة الأوكرانية تمثّل فرصة من منظور سورية.

إذا احتدم الموقف بين روسيا وأمريكا في أوكرانيا، ورأى الطرفان تمثيل سورية ساحة مواجهة، بالمعنى العسكري وليس فقط السياسي، كما سبقت الإشارة، فذلك يمثّل مصدر تهديد، ولو أنّه غير مرجّح حتى الان، وهذا -مرة أخرى- بافتراض قراءة عقلانية للأمر.

لكن إذا حصل هذا السيناريو أو جزء منه، فإنه يعني مزيداً من الحضور الروسي في سورية، وعدّ سورية مسألة أمن قومي لروسيا، وقد يحزّر الروس من عقد أو عقبات عديدة واجهت علاقتهم بسورية، مثل: الحصار وعقوبات «قانون قيصر»، والخوف من ردود الفعل الأمريكية والغربية إزاء أي خطوة يخطوها في سورية؛ وإنّ ذلك يجعلهم أقرب من سرديّة دمشق للحرب، وأكثر تبنيّاً لمدارك التهديد-الفرصة لديها، وخصوصاً لجهة الجماعات المسلحة في إدلب و«الكيانية الفدرالية» أو «الإدارة الذاتية» في منطقة الجزيرة، وبالطبع الحصار الاقتصادي، وسياسات الحل/التسوية في أفق القرار (2254) أو غيره.

وسوف تهتم روسيا أكثر بـ«منظور دمشق» إزاء إسرائيل وتركيا، وتحرص على «استجابة أفضل» نسبياً لمدارك التهديد لديها بهذا الخصوص، و«موازنة» أو «ضبط» التجاذبات بين إيران وكل من تركيا وإسرائيل في سورية.

وإذا ما طالت التأثيرات «تفاهات إستانة» بين روسيا وكل من تركيا وإيران، فإن ذلك -على خطورته- يمكن أن يمثّل -في جوانب منه- فرصة لدمشق، بتأكيد أن تركيا طرف غير موثوق بهم قبل روسيا، والحاجة لمراجعة الموقف إزائها، ومن ثمّ دعم الحكومة والجيش السوري في مواجهتها، واستعادة الأراضي التي تحتلها، وتفكيك «الإمارة» التي ترعاها في إدلب. ولو أنّ الموقف بين روسيا وتركيا أكثر تعقيداً ويتجاوز الأزمة السورية نفسها إلى طيف واسع من التفاعلات، والقضايا، والمصالح، والرهانات.

وإذا ما صار الالتزام الأمني والإستراتيجي لروسيا في سورية أكبر وأقرب للنظام السياسي والدولة في دمشق، فإنّ ذلك يحجّر جانباً من المخاوف السورية للاقتراب أكثر من إيران، وتصبح العلاقة معها أكثر مرونة وتوازناً، وتتحقّف بعض الشيء من ثقل الالتزامات الأمنية والعسكرية، والتبعات أو المنعكسات الاجتماعية والسياسية والرمزية، وبالطبع الضغوط الإقليمية والدولية التي تطالب النظام والدولة في دمشق بضبط وجود إيران في سورية ومراجعة علاقته أو تحالفه معها، كما تتكرر الإشارة.

إيران غير مرتاحة للموقف مع روسيا في سورية، فهي تتعرّض لضغوط متزايدة من قبل إسرائيل، ب«تفهّم» -وربما «مشاركة»- روسية. ويمكن للضغط على روسيا أن يساعد إيران في موازنة الموقف معها في سورية، فروسيا بحاجة لمراعاة إيران، شريكها في دعم الحكومة السورية في الحرب، وفي «عملية إستانة»⁸، وقد تحقّف النمط في تفاهاتها مع إسرائيل إزائها، فضلاً عن أن التحسّن المحتمل في العلاقات بين أمريكا وإيران، في إطار عودة مستقرة أو مديدة للاتفاق النووي، سوف يعزز إيرادات النفط لدى الأخيرة، ويمكنها من تخصيص المزيد من الموارد لسياساتها في الإقليم، ومنها سورية.

لكن، من الصعب أن تذهب الأمور بعيداً في «التباعد» بين إيران وروسيا، أو «التقارب» بين إيران وأمريكا. وحتى إذا ما حدث ذلك «التباعد»، فمن المرجح ألا يكون كبيراً، وذلك بسبب إكراهات كثيرة، منها حاجة كل طرف للآخر، في سورية وغيرها، وخاصة أنّ روسيا تكاد تمثّل «الوسيط شبه الحصري» -حتى الآن- في علاقات وتفاعلات إيران مع الغرب، وهي «الموازن»

8. عقيل سعيد محفوض، روسيا وإيران في سورية: البحث عن «نقطة توازن» بين عوامل التجاذب والتنافر، (بغداد: مركز البيان للدراسات والتخطيط، 24 تشرين الأول/أكتوبر 2021).

للضغوط الأمريكية والغربية على إيران في مجلس الأمن وغيره.

وإذا ما حدث «تقارب» بين إيران وأمريكا، فمن المرجح أن يكون هتئاً وقلقاً وأقل قابلية للاستمرار، وذلك بسبب إكراهات كثيرة، منها عدم الثقة، وتجدد الخلاف بينهما، فضلاً عن دور إسرائيل في توجيهه أو ترجيح اتجاهات السياسة الأمريكية بهذا الخصوص، فضلاً عن التأثير المحتمل للاعتراضات أو التحفظات من قبل عدد من الدول العربية مثل السعودية ومصر وغيرهما.

هذا يعني أنّ سورية مرشحة لوضعية أفضل في كلتا الحلتين، أي: إنّ «التباعد النسبي» بين روسيا وإيران يساعدها في تحقيق مكاسب أو فرض نوعية لدى كل طرف، ممّا لا يوفّره الطرف الآخر، وخصوصاً أنّ الطرفين قد يختلفان في أمور كثيرة، لكنّهما ما يزالان متفقين على دعم النظام السياسي والدولة في سورية والحاجة لاستمرارهما.

كما يمثّل «التقارب النسبي» بين إيران وأمريكا، فرصةً لسورية، بوصفه تخفيفاً للضغوط على سورية فيما يخصّ علاقتها بإيران، ويمكن الأخيرة من تخصيص مزيد من الموارد التي تتطلبها الأوضاع في سورية، وخصوصاً تأمين أو تمويل الاحتياجات الملحة من موارد الطاقة وغيرها، والحاجة لضخ موارد في قطاع العمل والإنتاج والاستثمار.. إلخ.

إنّ وجود روسيا في سورية مهم لتركيا، صحيح أنّه ضبط إلى حدّ ما رهاناتها فيها، إلاّ أنّه حقّق لها مكاسب ومصالح كبيرة، ويعزّز اعتماديتها لدى أمريكا والغرب في المنطقة، ولو أنّ تركيا لم تغادر موقعها أو تحالفها مع الغرب، كما أنّ مدارك التهديد العميقة لدى تركيا إزاء الغرب، وخاصة اهتمامه بـ«كيانية كردية» في سورية، يدفع تركيا للمحافظة على خطوط تفاهم وتعاون قوية مع روسيا، وهذا يمثّل -في جانبٍ منه- فرصة لسورية.

تحتاج إسرائيل لوجود روسيا في سورية، وتريد وجوداً روسياً قوياً بالقدر الذي يضبط «تموضع» إيران فيها، ويحافظ على «دولة الحد الأدنى» من القوة في سورية، بقدر لا يمثّل مصدر تهديد من أي نوع لإسرائيل.

ومن ثمّ فإنّ إسرائيل لن تشجّع أمريكا على مراجعة تفاهماتها مع روسيا في سورية، ولا على تفجير الموقف، أو إعادة إنتاج المواجهات العسكرية فيها، إذ يمكن لتراجع روسيا في سورية أن يمثّل فرصة لـ«تموضع» إيراني أكبر فيها، وقد يدفع ذلك لمواجهة مباشرة أو تفجير غير مرغوب أو غير قابل للضبط للصراع في سورية.

رابعاً- الإشارات والتنبيهات

- كان شعور روسيا بالاستهداف والتطويق في المحيط الحيوي القريب أحد مصادر سلوكها في سورية، بدءاً من الدعم السياسي والعسكري، إلى التدخّل المباشر في نهاية أيلول/سبتمبر 2015، إلى تعزيز وجودها الإستراتيجي على ساحل شرق المتوسط.

- أدرك الغرب -مع بداية الحرب- أنّ السبل المتبعة لـ«احتواء» روسيا لم تكن مناسبة، إذ إنّها وضعتها -ومعها العالم- على حافة حرب كبرى؛ كما أظهرت ردة فعل الغرب لروسيا أنّ العمل العسكري لم يكن السبيل الوحيد أو الأفضل، أو أنّ السياسة لم تستنفذ.

- هذا يعني أنّ المطلوب ليس فقط سحب التجربة بين روسيا وأمريكا في سورية إلى أوكرانيا، وإنّما المحافظة عليها في سورية نفسها، ولو أنّ المهمة شاقة، ذلك أنّ الرهانات حادة، ومدارك التهديد عالية، وبصورة غير مسبقة.

- ولعلّ الاحتمال الأكثر ترجيحاً هو دخول الطرفين في سياسات «احتواء» و«احتواء متبادل» في عدد من مناطق الاحتكاك بينهما، ومنها سورية. وهذا إن لم يفضّر الأوضاع ويدمّر التفاهات ويعيد إنتاج الحرب، فإنّه يؤرّم مسارات الحل/التسوية، ويجعل المشهد أكثر غموضاً واستغلاقاً.

- إنّ حقيقة الموقف أو ميزان الترجيح بين روسيا وأمريكا في سورية، ليس سورية نفسها، أو ليس سورية فحسب، وإنّما «إسرائيل»! بوصف أنّ أمن الأخيرة هو أولوية لدى كل منهما في الحدث السوري، وكان وما يزال العامل «الغائب الحاضر» أو «الحاضر الحاضر» في ذلك.

- يمثّل التقارب بين سورية والعراق وعدد من الدول العربية الأخرى، مثل الإمارات، والحوار الإستراتيجي بين إيران والسعودية، بتيسير من قبل العراق، «مدخلاً موازناً» للتخفيف من المنعكسات السلبية ومدارك التهديد الملازمة للأزمة الأوكرانية على المنطقة. وهذا يتطلب مواصلة الجهود في مسار الحوار متعدد المستويات أو متعدد الأبعاد والأطراف في الإقليم.

- ثمّة حاجة لـ«احتواء» أي سياسات استقطاب حادة محتملة في الإقليم بتأثير الأزمة الأوكرانية، والصّدّام بين روسيا والغرب في أوكرانيا؛ وألاً تكون سورية أو العراق على سبيل المثال ساحة احتدام

أو مواجهة موازية بين الفواعل المتصارعة على المستوى الدولي، بسبب الأزمة الأوكرانية.

- من المناسب لإيران أن تتحسّب لمدراك التهديد الناتجة لدى روسيا إزاء إيران بسبب تباين خيارات أو تقديرات الطرفين من العودة الأمريكية للاتفاق النووي مع إيران، وذلك لسببين رئيسيين: الأول، هو يمكن لعودة أمريكا للاتفاق أن تكون مدفوعةً -في جوانب منها- برغبة أمريكا في محاصرة روسيا، والمباعدة بينها وبين إيران في سورية، والآخر، هو قد لا تكون العودة للاتفاق مستقرة، وروسيا مهمة لإيران على المدى البعيد.

- من المناسب لروسيا أن تقوم بمراجعة للموقف بينها وبين إسرائيل إزاء وجود إيران في سورية، وتعزيز التفاهم وتوسيعه مع إيران بكيفية تجعل الدور الروسي «موازناً موضوعياً» لمختلف الأطراف وضابطاً -ما أمكن- لمختلف الرهانات، بما يحقق سياسات ومصالح ذات ديمومة أو قابلة للاستقرار، ولو أنّ المهمة شاقة.

- يمكن للعراق، بحكم علاقاته الجيدة مع أمريكا وروسيا وإيران وسورية، أن يساعد في التراسل وتخفيف أي منعكسات غير محسوبة أو غير مرغوبة بين الأطراف، جرّاء الأزمة في أوكرانيا، وخصوصاً في مناطق الاحتكاك المباشرة في خط الفرات، ومنطقة الجزيرة السورية، ومناطق الحدود بين سورية والعراق.

- من المناسب أن يقوم العراق باقتراح توسيع «الإطار التنسيقي» الذي يجمعه بالأردن ومصر والإمارات، والذي اجتمع في العقبة (الأردن، 25 آذار/مارس 2022)، ليشمل سورية، للبحث في «خطة استجابة» عربية وإقليمية للتحديات القائمة والمحتملة، ومنها تأثيرات الأزمة الأوكرانية.

خاتمة

تُعَوّل دمشق على انتصار روسي في جبهة أوكرانيا، بقدر حاجتها لانتصارها هي نفسها في جبهات الحرب المختلفة في سورية. وبعدها البدائل محدودة للغاية، فإنّ مدارك التهديد-الفرصة تدفع دمشق والإقليم للتحسّب لأيّ تطوّرات وانزلاقات غير مرغوبة قد تجعل سورية والمنطقة ساحة مواجهة جانبية، أو موازية، أو ساحة مساومة، أو تعويض بين الأطراف الدولية المنازعة ارتباطاً بالأزمة الأوكرانية.

وهذا يقتضي من مختلف الأطراف في الإقليم، سورية والعراق وإيران والإمارات ومصر والأردن وغيرها، القيام بمزيدٍ من الاتصالات والمداولات، لتخير السبل والاستجابات الممكنة لـ «احتواء التهديد» أو «اغتنام الفرص» المحتملة الناتجة عن الأزمة في أوكرانيا.

وإذا ما تمكنت سورية من استعادة نفسها، مجتمعاً ودولة، واستعادة دور «الموازن الموضوعي» بين فواعل إقليمية ودولية، منها روسيا وأمريكا، وإيران وتركيا وعدد من الدول العربية، فسوف يكون ذلك بمنزلة «رافعة» لسياساتها وتفاعلاتها في الداخل والخارج، بقدر أقل من المدارك النمطية والاصطفافات الحادة، إذ يمثّل ذلك الدور «حاجة للجميع».